عبدالهادي العزازي*

الهيمنة الخوارزمية: كيف تسعى إسرائيل إلى تشكيل السرديّة في الوعي الغربي؟

الملخص

يدرس هذا المقال كيفية سعي إسرائيل في العصر الرقمي إلى فرض هيمنتها على إنتاج السرديات المرتبطة بالصراع الفلسطيني–الإسرائيلي داخل الوعي الغربي تحديدًا، وذلك عبر أدوات رقمية معقّدة تعيد صياغة الإدراك الجماعي. لا ينشغل النص بسؤال النجاح أو الفشل في هذه المحاولات، إذ تحذّر تقارير عديدة من المبالغة في تصوير إنجازات إسرائيل الرقمية، خصوصًا خلال الحرب على غزة، بل يركّز على سؤال جوهري: كيف تعمل إسرائيل على إعادة إنتاج روايتها في الغرب، وبأي تقنيات وخوارزميات وآليات إعلامية؟ ينطلق المقال من الجذور التاريخية للحرب على الرواية في الغرب، ليكشف عن تحوّلها في السنوات الأخيرة إلى بيئة رقمية تُدار عبر محركات البحث، منصات التواصل الاجتماعي، وأنظمة الذكاء الاصطناعي. ويُظهر التحليل أن خوارزميات مثل تلك التي تديرها Google و Meta لا تعمل كوسيط محايد، بل تمنح أفضلية بنيوية للمحتوى الإسرائيلي، بينما يُقصى الخطاب الفلسطيني أو يُعيد تصنيفه مسبقًا باعتباره محتوى «تحريضيًا» أو «غير موثوق». كما يتتبّع المقال التبليغ لإسكات الصحافيين والنشطاء الفلسطينيين. ويُبرز المقال كيف يُعاد إنتاج الرواية الصهيونية عبر التخصيص الخوارزمي، بحيث يُصمَّم المحتوى وفق الجمهور الغربي وموقعه الجغرافي وخلفيته الثقافية، فتُقدَّم إسرائيل بصور متناقضة لكنها متكاملة: «الديمقراطية الوحيدة»، «الضحية»، و«الفيلا في وسط الغابة»، بينما يُعاد تموضع الفلسطيني بشكل مستمر باعتباره تهديدًا أمنيًا أو مصدر تحريض. وبذلك يخلص المقال إلى أن معركة إسرائيل في الغرب لم تعد تقتصر على السيطرة على الأرض أو المعلومة، بل امتدت إلى السيطرة على بنية الإدراك ذاتها، حيث تتحول الخوارزميات إلى أدوات استعمارية ناعمة تعيد تشكيل الواقع وتحدّد حدود الظهور والغياب.

كلمات مفتاحية:

الهيمنة الخوارزمية؛ إدارة المعتقد؛ إقصاء السردية الفلسطينية؛ البروباغندا الصهيونية؛ العنف الرقمي.

---

* باحث وناشط سياسي من الأردن، يهتم بدراسة العلاقة بين التكنولوجيا والسياسة، وتحليل آليات تشكيل الرأي العام في الفضاء الرقمي، مع تركيز خاص على البروباغندا الإسرائيلية واستراتيجياتها الإعلامية. البريد الإلكتروني: abd.alhadi.alazzazi@gmail.com.

المقدمة

منذ نشأتها، أدركت الحركة الصهيونية أن السيطرة على السرديات لا تقل أهمية عن السيطرة على الأرض، بل تعتبر أداة ملازمة لشرعنة دولة إسرائيل. فإعادة إنتاج الوعي، خصوصًا أمام الحكومات الغربية والرأي العام الدولي، شكّلت مشروعًا استراتيجيًا لازم عملية الاستيطان مطلع القرن العشرين، وبناء الدولة، وتبرير احتلال عام ١٩٦٧ والعودة إلى «أرض الميعاد»، و«مغسلة» (image laundering) لتقديم جرائم إسرائيل خلال حروبها المستمرة على قطاع غزة أمام الغرب كعمليات اضطرارية لا بد منها للدفاع عن النفس. لم يكن الهدف مجرّد تبرير العدوان الإسرائيلي على الفلسطينيين، بل بناء سردية موثوقة ومتكررة واستعطافية تُعيد تعريف الواقع نفسه، وتمنح الرواية الصهيونية طابعًا بديهيًا (axiomatization)،[1] بينما تُقصى السرديات الأخرى، خصوصًا الفلسطينية/العربية وتُفرَّغ من شرعيتها. بهذا المعنى، كانت الحرب على وعي الغرب، ومواقفه، وفهمه للرواية، أداة استراتيجية.

منذ البدايات، كانت الصحافة الحزبية في أوروبا إحدى أبرز الوسائل. فقد أسس هرتسل (Theodor Herzl) جريدة Die Welt في فيينا عام ١٨٩٧ (واستمرت بعد وفاته حتى عام ١٩١٤)، لتكون المنبر المركزي للحركة الصهيونية (Berkowitz 1996). وفي برلين لعبت صحيفة Jüdische Rundschau دورًا محوريًا في مخاطبة اليهود الأوروبيين، إذ ارتفع توزيعها من نحو خمسة آلاف نسخة عام ١٩٠٧ إلى ستين ألف نسخة أسبوعيًا بحلول ١٩٣٢ (Raynharts 1975)، وهو رقم يعكس الانتشار الواسع للفكر الصهيوني في الأوساط اليهودية الألمانية.

مع نهاية الحرب العالمية الأولى ودخول فترة الانتداب البريطاني، توسّعت القنوات الإعلامية الصهيونية لتشمل وكالات أنباء وصحفًا أكثر تأثيرًا. تأسست وكالة Jewish Telegraphic Agency – JTA عام ١٩١٧، وسرعان ما أصبحت تغذّي أكثر من ٤٠٠ صحيفة حول العالم بأخبار وتقارير موجهة، في حين ظهرت في القدس صحيفة Palestine Bulletin عام ١٩٢٥، التي تحوّلت لاحقًا إلى جيروزالم بوست، ولعبت دورًا مباشرًا في التأثير على الإدارة البريطانية وتغذية الرأي العام المحلي والدولي بالرواية الصهيونية.

على المستوى البصري، كانت أدوات مثل صناديق التبرعات الشهيرة باسم «العلبة الزرقاء» (Blue Box) التي نشرها الصندوق القومي اليهودي، والملصقات السياحية مثل ملصق Visit Palestine من العام ١٩٣٦ للفنان فرانتس كراوس (Franz Krausz)، والخرائط الدعائية التي وزعت في المدارس، عناصر أساسية في تكوين صورة متخيلة لفلسطين خالية من سكانها العرب.

بهذه الوسائط المتشابكة – الصحافة، الوكالات، الأدب، الملصقات، السينما، والمعارض – صاغت الحركة الصهيونية روايتها وقدّمتها للعالم كحقيقة بديهية، بينما ظلّ الفلسطينيون مغيبين عن المشهد الإعلامي والدعائي الغربي أو محذوفين نسبيًا من الخرائط والنصوص (Khalidi 2010). ومع تزايد النفوذ الصهيوني في الغرب، أصبح للسينما والتلفزيون دور محوري في ترسيخ هذه السردية، حيث لم تعد إسرائيل تعتمد فقط على نشر المعلومات، بل على إدارة كيفية مشاركة الجماهير في تصديق هذه الرواية.

في العصر الرقمي، لم تعد الدعاية مجرّد رسائل مباشرة، بل تحوّلت إلى منظومات معقّدة لإعادة تشكيل الإدراك الجماعي. لم يعد الصراع على الحقيقة قائمًا على التمييز بين الصدق والكذب، بل على الظهور والغياب داخل فضاءات رقمية تتحكم بها خوارزميات غير مرئية. جعلت هذه التحولات إنتاج الرواية المهيمنة يتم عبر إعادة صياغة البيئة الرمزية والمعرفية التي يُستقبل فيها الخطاب، بحيث يُقدَّم كخيار طبيعي ووحيد ممكن، فيما تُقصى البدائل وتُجرّد من شرعيتها. بهذا المعنى، باتت الدعاية الرقمية شكلًا جديدًا من الهيمنة الرمزية، تُعيد تعريف حدود الممكن في الوعي الغربي وتعيد إنتاج الشرعية للمشروع الاستعماري في ثوب معاصر.

١. إدارة المعتقد وبناء السردية الاستعمارية

قبل استكمال هذا السرد التاريخي بالتركيز على الحقبة الرقمية، موضوع هذه المقالة، لا بد من استعراض بعض الإضاءات النظرية المهمة في هذا المقام. يعتبر بيرنيز (Edward Bernays)، «أبو العلاقات العامة» (father of public)، نقطة تأسيسية في هذا الحقل (Bernays et al. 2021). فقد طوّر تقنيات الدعاية عبر ما سمّاه «هندسة القبول»، مستندًا إلى علم

■ صورة تعبيرية. (صحف)

النفس الفرويدي لتوجيه الرأي العام، مُظهرًا كيف يمكن للنخب والشركات والدول إعادة تشكيل الوعي الجماعي، وتحويل روايتها إلى بديهيات تُقصي البدائل. تكشف التجربة الصهيونية عن آلية سوسيولوجية محورية تتمثل في إعادة ترميز الأفكار وإعادة إنتاجها بطرق متعددة بحيث تكتسب قبولًا اجتماعيًا حتى عندما تستند إلى افتراضات زائفة أو مغالطات بنيوية. ففي حالة إسرائيل، جرى تسويق الدولة عبر سرديات متناقضة ظاهريًا لكنها متكاملة وظيفيًا: دولة ديمقراطية، ضحية دائمة لـ«الإرهاب»، وملاذ خلاص لليهود المضطهدين. هذا التعدد لم يكن عشوائيًا، بل ممارسة ممنهجة لـ «إدارة المعتقد» (perception management)، حيث تُقدَّم صور مختلفة لتخاطب شرائح جماهيرية متباينة وفقًا لسياقاتها السياسية والثقافية، مما يُنتج شرعية متراكبة ومتجددة تخدم البنية الاستعمارية نفسها.

يمثّل مفهوم «إدارة المعتقد» أداة أساسية لفهم كيفية إنتاج الرواية المهيمنة وتثبيتها في المخيلة الجمعية. فالمسألة لا تتعلق بالتكرار الدعائي وحده، بل بعملية منهجية تُعيد تشكيل البيئة الرمزية والمعرفية التي تُستقبل فيها الرسائل (Bernays et al. 2021). بهذا المعنى، تُقدَّم الرواية الصهيونية كأنها الخيار الطبيعي والوحيد الممكن، بينما تُقصى الروايات الفلسطينية وتُجرَّد من شرعيتها. وهنا تتقاطع الفكرة مع ما طرحه إدوارد هيرمان (Edward Herman) وناعوم تشومسكي (Noam Chomsky) اللذان يبيّنان أن وسائل الإعلام في المجتمعات الليبرالية لا تعمل فقط كمنابر للتعددية، بل كآليات لخلق توافق مُصنَّع يخدم مصالح النخب السياسية والاقتصادية (Herman and Chomsky 2002). وفق هذا المنظور، لا تُدار الرواية الصهيونية عبر الإقناع المباشر فحسب، بل عبر ضبط القنوات الإعلامية، وتحديد ما يُقال وما يُحذف، وما يُقدَّم كحقيقة بديهية وما يُشيطَن. إنها عملية هيمَنة رمزية تُحوّل السردية الصهيونية إلى إطار معرفي مُسبق، يحدّد شروط النقاش ويُفرغ البدائل من أي شرعية اجتماعية أو سياسية.

إلى جانب ذلك، يضيف لوبون (Gustave Le Bon) طبقة أخرى من التحليل لفهم فعالية هذه الاستراتيجيات. فقد أكّد على أنّ الجماهير لا تستجيب للتعقيد بقدر ما تستجيب للصور البسيطة والمشحونة عاطفيًا. هنا تبرز أهمية «القصص الفردية» في الدعاية الصهيونية: مثل تضخيم حادثة مقتل جندي إسرائيلي مقابل التعتيم على المجازر بحق الفلسطينيين (Le Bon 2021). بهذه الطريقة تُبنى ذاكرة جمعية منحازة،

يخلص المقال إلى أن معركة إسرائيل في الغرب لم تعد تقتصر على السيطرة على الأرض أو المعلومة، بل امتدت إلى السيطرة على بنية الإدراك ذاتها، حيث تتحول الخوارزميات إلى أدوات استعمارية ناعمة تعيد تشكيل الواقع وتحدّد حدود الظهور والغياب.

تُعيد إنتاج نفسها عبر الإعلام المرئي والمكتوب، وتشكّل أفق الإدراك الجماهيري.

أما ماركوز (Herbert Marcuse)، وفي معرض نقده المجتمعاتِ الرأسمالية، يضيف بعدًا مهمًا حين يطرح مفهوم «التسامح القمعي» (repressive tolerance). يوضح هذا المفهوم كيف يمكن للأنظمة أن تتيح حرية التعبير شكليًا، لكنها تخلق شروطًا تجعل من بعض الآراء غير قابلة للقبول اجتماعيًا أو سياسيًا (Wolff et al. 1970). في السياق الصهيوني، تجسّد ذلك في ربط أي نقد لإسرائيل بمعاداة السامية، وهو ما حوّل الموقف النقدي إلى خطر على المكانة المهنية والسياسية للصحافيين والساسة. بذلك، يتحول «التسامح» إلى آلية لإسكات الأصوات المعارضة، ويُعاد تعريف حدود المقبول والمرفوض في المجال العام.

يمكن قراءة هذه الاستراتيجيات كجزء من عملية «إنتاج المعرفة الاستعمارية» التي تحدث عنها إدوارد سعيد في نقده الاستشراق. فالرواية الصهيونية لا تكتفي بالسيطرة على الأرض، بل تسعى أيضًا للهيمنة على البنية الرمزية والمعرفية عالميًا. إنها عملية تصنيع للسردية تجعل من المشروع الاستيطاني مشروعًا شرعيًا، بل مشروعًا «تحريريًا»، بينما تُمحى الرواية الفلسطينية أو تُختزل في صورة «إرهاب» أو «لاعقلانية». إدارة المعتقد هنا ليست مجرد أداة دعائية، بل استراتيجية معرفية/قمعية تدمج بين إعادة إنتاج الصور الرمزية وتقييد إمكانيات التعبير المعارض. الجمع بين بيرنيز، ولوبون، وماركوز يكشف عن ثلاثية متكاملة: إعادة صياغة الروايات بأشكال متعددة حتى تُقبل اجتماعيًا؛ تبسيطها وشحنها عاطفيًا كي تنغرس في وعي الجماهير؛ وقمع أي خطاب بديل عبر آليات مؤسسية وسياسية. توضّح هذه الثلاثية كيف يتم بناء السردية الاستعمارية وتثبيتها على المستويين المحلي والدولي، لتصبح جزءًا من «العقلانية المشتركة» التي يصعب تحدّيها إلا عبر تفكيك بنيتها النظرية والمعرفية.

٢. كيف تُعيد الصهيونية تشكيل الإدراك الغربي في العصر الرقمي؟

في العصر الرقمي، لم تعد المعلومات تنتقل من المصدر إلى المتلقي بشكل خطي، بل تُصفّى وتُوزّع وتُضخّم وفقًا لخوارزميات غير مرئية تحدّد ما يُرى وما يُهمَّش. هنا، لم تعد المعركة على الحقيقة تدور حول الصدق والكذب، بل على الظهور والغياب. هذا التغيير فتح بابًا جديدًا للهيمنة الرمزية، إذ باتت الخوارزميات منصّات تحكّم في الإدراك، ووسائل لإنتاج قناعات جماعية، تمامًا كما كانت الصحافة الموجّهة في القرن الماضي.

لكن المختلف اليوم هو أن أدوات السيطرة لم تعد علنية أو مباشرة، بل خفية، تعمل على إعادة تشكيل الواقع في لا وعي المستخدم.

في الفضاء الرقمي، لا تظهر الحقيقة تلقائيًا في الصفحة الأولى. ما يُعرض أولًا ليس بالضرورة الأكثر صدقًا، بل غالبًا ما يكون الأكثر تطابقًا مع خوارزميات الترتيب التي تُمليها مصالح اقتصادية وسياسية خفية. محركات البحث، وفي مقدمتها Google، لا تنقل الواقع كما هو، بل تُعيد ترتيبه وفقًا لمنطق الملاءمة والموثوقية كما تُعرّفها مراكز السلطة الغربية (Noble 2018). وعندما يتعلق الأمر بفلسطين، تصبح هذه الخوارزميات أدوات تدخّل مباشر في تشكيل الإدراك الجمعي. مثلا، أظهرت الدراسات أن نتائج محركات البحث حول الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي تختلف بشكل كبير حسب الموقع الجغرافي وسجل التصفح (İris et al. 2025)، ما يجعل المستخدم في أميركا يرى محتوى مختلفًا عن المستخدم في الشرق الأوسط، غالبًا

في العصر الرقمي، لم تعد الدعاية مجرّد رسائل مباشرة، بل تحوّلت إلى منظومات معقّدة لإعادة تشكيل الإدراك الجماعي. لم يعد الصراع على الحقيقة قائمًا على التمييز بين الصدق والكذب، بل على الظهور والغياب داخل فضاءات رقمية تتحكم بها خوارزميات غير مرئية. جعلت هذه التحولات إنتاج الرواية المهيمنة يتم عبر إعادة صياغة البيئة الرمزية والمعرفية التي يُستقبل فيها الخطاب.

لصالح السردية الإسرائيلية. كما كشفت تقارير أن الحكومة الإسرائيلية دفعت لجوجل لعرض إعلانات تتصدر نتائج البحث حول محكمة العدل الدولية، ووصفت دعوى جنوب أفريقيا بأنها «بلا معنى».

لكن التهميش هنا لا يتم عبر قرار صريح أو رقابة مباشرة، بل يُمارَس بأساليب غير مرئية تُسجَّل ضمن ما يسمّى «تصنيف الجودة»، و«تحديد السلطة»، و«استحقاق الظهور». مثلًا، ترتكز إرشادات غوغل الرسمية للمراجعين البشريين على مفهوم E–E–A–T (الخبرة، التخصص، السلطة، الموثوقية)، خصوصًا في القضايا الحساسة كالأخبار والصحة والسياسة.[٢] هذه التصنيفات لا تُمنح تلقائيًا، بل يقوم المقيمون بتقدير مدى التزام المنصة بالمعايير الصحافية والمصداقية. مؤسسات إعلامية كـ BBC أو New York Times غالبًا ما تحصد تقييمات عالية نتيجة سمعتها المؤسسية وتاريخها المهني، ما يجعلها تظهر كمصادر "موثوقة" داخل منطق الخوارزميات. مع ذلك، المراجعون لا يتحكمون مباشرة في ترتيب النتائج، بل يوفرون بيانات تغذي تطوير الخوارزميات. غير أن البعد السياسي لا يمكن فصله: إذا كانت هذه المؤسسات الإعلامية مهيمنًا عليها بالخطاب الصهيوني في الغرب، فإن تصنيفها على أنها «سلطة» و«موثوقية» يصبح جزءًا من إعادة إنتاج الهيمنة المعرفية التي تقصي الروايات الفلسطينية وتمنح الشرعية للرواية المهيمنة. كما تظهر نتائج الدراسات أنّ وكالات الأنباء الفلسطينية، رغم مهنيتها ومصداقيتها، تُعامَل في خوارزميات محركات البحث كـ «مصادر ناشطة» أو «غير محايدة»، ما يجعلها أقل ظهورًا في النتائج مقارنة بالمواقع الغربية أو الإسرائيلية المصنّفة كـ «موثوقة» و«عالية السلطة». تؤدي هذه الآلية إلى تهميش السردية الفلسطينية وإضعاف حضورها الرقمي، بحيث يُقدَّم المحتوى الإسرائيلي كحقيقة طبيعية بينما يُدفَع المحتوى الفلسطيني إلى الهامش (Íris et al. 2025).

هذا الإقصاء لا يحدث بشكل عشوائي، بل هو نتيجة مباشرة لاستخدام تقنيات تحسين محركات البحث (Search Engine Optimization– SEO). تحسين محركات البحث أو ما يعرف بالـSEO هو ساحة حاسمة في تشكيل الوعي الرقمي، إذ يحدد أي محتوى يظهر أولًا أمام المستخدمين وما يُعتبر جديرًا بالثقة. يقوم هذا النظام على عوامل تقنية ومعيارية مثل الروابط الخلفية (backlinks) من مواقع كبرى تمنح الموقع سلطة أكبر، وجودة المحتوى الذي يُقاس بطوله وتحديثه وتوافقه مع المعايير التقنية، إضافة إلى «مصداقية المصدر». هنا يتضح التفوق الإسرائيلي البنيوي: فهي تمتلك شبكة إعلامية هائلة تنتج محتوى مكثفًا بالإنجليزية والعبرية، مدعومًا بمراكز أبحاث ووزارات ولوبيات سياسية، فتجعل روايتها أكثر انتشارًا وأكثر توافقًا مع معايير Google . كما تُتقن المؤسسات الإسرائيلية اللعب بالكلمات المفتاحية التي يبحث عنها الجمهور الغربي مثل terrorism أو Hamas أو security، ما يسمح لها باحتكار الخطاب وتوجيه نتائجه. يضاف إلى ذلك أن الموقع الجغرافي للمستخدم يؤثر بشكل مباشر، فمجرد البحث من الولايات المتحدة أو إسرائيل يجعل الخوارزميات تقدم نتائج منحازة للرواية الإسرائيلية وتدفع بالرواية الفلسطينية إلى الأسفل. بهذه الطريقة يتحول SEO إلى أداة غير مرئية لهيمنة السردية الإسرائيلية وإقصاء الرواية الفلسطينية من فضاء الوعي الرقمي العالمي. في المقابل، لا يُعَدّ المحتوى الفلسطيني عادةً مؤهلًا لاستخدام الأدوات ذاتها، إما بسبب محدودية الموارد أو لأن المنصات تُصنِّفه تلقائيًا كمحتوى سياسي أو تحريضي، ما يؤدي إلى خفض ترتيبه وتهميش

لا تُدار الرواية الصهيونية عبر الإقناع المباشر فحسب، بل عبر ضبط القنوات الإعلامية، وتحديد ما يُقال وما يُحذف، وما يُقدَّم كحقيقة بديهية وما يُشيطَن. إنها عملية هيمَنة رمزية تُحوّل السردية الصهيونية إلى إطار معرفي مُسبق، يحدّد شروط النقاش ويُفرغ البدائل من أي شرعية اجتماعية أو سياسية.

ظهوره، حتى لو كان دقيقًا وموثقًا.

لكن الأخطر أن هذا التحيز ليس ثابتًا فقط، بل يتغير تبعًا للموقع الجغرافي للمستخدم، ولغته، وسلوكه الرقمي السابق. أي أن المستخدم الذي يفتح Google في نيويورك باللغة الإنجليزية، سيحصل على نتائج مختلفة تمامًا عن مستخدم في رام الله يبحث بالعربية. الخوارزميات هنا لا تُعيد فقط ترتيب الحقائق، بل تُعيد تشكيل البيئة التي تُستهلك فيها. كل مستخدم يرى واقعًا مصممًا خصيصًا له، بناءً على ما تعتبره الخوارزمية مناسبًا لأجندته أو بيئته. يعزز هذا الشكل من التخصيص فقاعات الإدراك، ويمنع الرواية الفلسطينية من الانتشار إلى أماكن لم يكن الوعي الجمعي مقتنعًا بها بسبب ما صُمم له من واقع تظهر فيه إسرائيل على أنها «الضحية»، أو «الديمقراطية الوحيدة»، أو أنها «تحارب الإرهاب». قد يُطرح هنا سؤال: لماذا لا يتم نشر الرواية الإسرائيلية نفسها في كل مكان بالآلية نفسها؟ والجواب أن الرواية الصهيونية لا تصلح أن تكون ثابتة لتشكيل الوعي عالميًا، بل يجب أن تُصاغ كنسخ متعددة متناقضة لكنها متكاملة، وهو ما ينسجم تمامًا مع مبادئ صناعة المعتقد.

تتعمق آليات الإقصاء حين نعلم أن أنظمة الذكاء الاصطناعي التي تُشغّل منصات مثل Google وMeta مدرَّبة على تصنيف كلمات فلسطينية أساسية مثل «مقاومة»، «شهيد»، و«انتفاضة» كمحتوى تحريضي أو خطير. هذا يؤدي إلى خفض ظهورها تلقائيًا أو حذفها من دون تدخل بشري مباشر. وقد وثّقت تقارير Human Rights Watch أن هذه الخوارزميات تفشل في فهم السياق العربي، ما يجعلها أشد قسوة على الفلسطينيين مقارنةً بغيرهم، إذ أزالت مئات المنشورات الموثقة لانتهاكات إسرائيل لمجرد احتوائها على كلمات مثل «القدس» و«الأقصى» (Deborah and Younes 2023). مثلا، خلال الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة في أيار ٢٠٢١، رصد المركز العربي لتطوير الإعلام الاجتماعي- حملة، أكثر من خمسمئة حالة رقابة رقمية خلال عشرة أيام فقط، شملت حذف منشورات وتعطيل حسابات وتقييد وصول جماعي، في الوقت الذي صعدت فيه وسائل الإعلام الإسرائيلية إلى صدارة المشهد الرقمي.[٣] وفي تقرير آخر صدر عام ٢٠٢٢، كشف المركز أن نحو ٨٠٪ من المحتوى الفلسطيني الموثق تم تقييد وصوله مقارنة بالمحتوى الإسرائيلي، الذي بقي متاحًا حتى حين تضمّن تحريضًا صريحًا على العنف ضد الفلسطينيين.[٤]

إلى جانب التحيز الخوارزمي الآلي، تأتي حملات التبليغ المنظّم كآلية إضافية لإسكات الرواية الفلسطينية. إذ تُستخدم آلاف الحسابات، كثير منها وهمي أو مدعوم ببرمجيات أوتوماتيكية، لإغراق أنظمة التبليغ في فيسبوك ويوتيوب وتويتر ضد النشطاء والصحفيين الفلسطينيين، ما يؤدي إلى تعطيل حساباتهم أو تقييد وصولهم. أبرز مثال على هذا هو مشروع Act.IL، الذي أُطلق سنة ٢٠١٧ كجزء من مشروع حكومي إسرائيلي واسع لمواجهة حركة المقاطعة الفلسطينية (BDS) والتأثير على الرأي العام العالمي. قاد الحملة وزير الشؤون الإستراتيجية آنذاك جلعاد إردان، الذي قدّمه باعتباره «القبة الحديدية للحقيقة» في الفضاء الرقمي. فكرة التطبيق تقوم على منح المستخدمين «مهام» يومية، مثل الضغط على إدارات جامعية لإسكات الأصوات المؤيدة لفلسطين، مهاجمة ناشطين في مواقع التواصل، أو نشر تعليقات إيجابية عن إسرائيل لتتصدر التفاعل. بدت بعض المهام سطحية وساذجة، مثل الترويج لمطاعم أو صيحات موضة، بينما ركّزت أخرى على تشويه سمعة منظمات حقوقية أو الدفاع عن اعتداءات الجيش الإسرائيلي. ورغم أن القائمين على التطبيق ادعوا أنه مبادرة «شعبية»

■ صورة تعبيرية. (صحف)

من طلاب جامعيين، فإن دلائل عديدة كشفت تورط مسؤولين سابقين في الاستخبارات الإسرائيلية ودعم مباشر من الحكومة، إضافة إلى تمويل من الملياردير شلدون أدلسون. كان الهدف إخفاء الدور الرسمي وإظهار النشاط وكأنه ردود فعل عفوية من «مجتمع مدني»، فيما عُرف باستراتيجية «لا شعار». لكن هذه الاستراتيجية فشلت؛ إذ انكشفت حقيقة التطبيق وتراجع الاهتمام به، كما لم يحقق نتائج ملموسة أمام توسع التضامن مع فلسطين عالميًا. عام ٢٠٢٢ أُعلن عن إغلاقه، وبررت الجهة المشغلة القرار بـ«تغير طبيعة التفاعل على السوشيال ميديا»، ليُسجل كمحاولة دعائية لم تصمد طويلًا (Roth-Rowland 2022).

أظهرت حرب غزة بين عامي ٢٠٢٣ و٢٠٢٥ تحوّلًا بارزًا في طبيعة الصراع من مجرد مواجهات ميدانية إلى صراع على المعنى والإدراك الجماهيري عبر المنصات الرقمية. تكشف الوثائق والدراسات المختصة أن شركات التقنية مارست عمليات حظر وحذف حسابات ومحتوى فلسطيني بشكل منهجي بذريعة «مخالفة معايير المجتمعات»، بينما تبقى حسابات ومحتوى تحريضي إسرائيلي مثيرًا للجدل دون قيود مقابلة. يُبرز هذا الأمر أن الخوارزميات والمنصات ليست وسيطًا محايدًا بل أدوات سياسية ناعمة تعيد صياغة الفضاء الرقمي وخطاب الصراع (Deborah and Younes 2023).

بين تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٣، وثق تقرير لمنظمة هيومن رايتس ووتش أكثر من ١٠٥٠ حالة حظر لمحتوى فلسطيني على «فيسبوك» و«إنستغرام»، من أصل أكثر من ألف حالة متعلقة بالسلمية والتعبير عن الدعم الفلسطيني، مع إزالة واحدة فقط لمحتوى داعم لإسرائيل. وأشارت المنظمة إلى أن الحظر شمل حسابات فلسطينية نشطة، من بينها حسابات صحافيين وناشطين مستقلين، كما شملت عمليات تقييد الإعجاب والمتابعة واستخدام ميزات البث المباشر (Deborah and Younes 2023).

في الوقت نفسه، أعلن مركز حملة عن توثيقه عشرات آلاف المنشورات التحريضية باللغة العبرية خلال عام ٢٠٢٤، مع تركيز ٨٠٪ منها على منصة "X" Twitter (سابقًا)، دون اتخاذ إجراءات رادعة مماثلة ضدها. كما أعلنت منصة X عن إزالة المئات من الحسابات الفلسطينية بزعم انتمائها لحماس، في إطار محاربة المحتوى العنيف أو الكراهية، وسط انتقادات لاضطهاد سردية الفلسطينيين (BHRRC 2023).

إحصائيات الرقابة الرقمية الإسرائيلية خلال حرب على غزة

يكشف تقرير «مؤشر الحقوق الرقمية ٢٠٢٤» الصادر عن مؤسسة «صدى سوشال» عن مشهد بالغ الدلالة في كيفية إدارة الفضاء الرقمي في لحظات الصراع، حيث يظهر أن الحرب الإسرائيلية على غزة لم تُخض فقط بالقنابل والدبابات، بل أيضًا عبر سياسات قمعية ممنهجة على المنصات الرقمية العالمية (Al Houri 2025). فقد وثّق التقرير أكثر من ٢٥ ألف انتهاك استهدفت المحتوى الفلسطيني، شملت حذف منشورات، حظر حسابات، وتقييد وصول المستخدمين إلى جمهورهم. يفضح التوزيع العددي لهذه الانتهاكات بدوره سياسة خوارزمية غير متوازنة: إنستغرام في المقدمة بنسبة ٣١٪، يليه تيك توك (٢٧٪)، فيسبوك (٢٤٪)، ثم منصة إكس (تويتر سابقًا) بحوالى (١٢٪). تكشف هذه الأرقام أن المنصات الأكثر تأثيرًا بين الأجيال الشابة، خصوصًا في فلسطين والعالم العربي، كانت ساحةً رئيسة لممارسة الرقابة، وكأنها امتداد لنظام الاحتلال على مستوى البنية التحتية للمعرفة والتواصل.

اللافت أن نسبة كبيرة من الانتهاكات طالت

في السياق الصهيوني، تجسّد ذلك في ربط أي نقد لإسرائيل بمعاداة السامية، وهو ما حوّل الموقف النقدي إلى خطر على المكانة المهنية والسياسية للصحافيين والساسة. بذلك، يتحول «التسامح» إلى آلية لإسكات الأصوات المعارضة، ويُعاد تعريف حدود المقبول والمرفوض في المجال العام.

الصحافيين والمؤسسات الإعلامية (٢٩٪)، وهو ما يعني أن تقييد الرواية الفلسطينية لم يكن عرضيًا بل استراتيجيًا يهدف إلى إسكات المصادر التي توثق الجرائم لحظة بلحظة. كما أن ٢٠٪ من هذه الانتهاكات استهدفت صحافيات نساء، الأمر الذي يفتح نقاشًا حول البعد الجندري للقمع الرقمي، حيث يجتمع التمييز المزدوج: كفلسطينيات أولًا وكنساء ثانيًا، في فضاء يُفترض أنه أكثر انفتاحًا وديمقراطية.

على الضفة المقابلة، وثّق التقرير أكثر من ٨٧ ألف حالة تحريض ضد الفلسطينيين خلال عام ٢٠٢٤، معظمها على تلغرام (٤١٪) ومنصة إكس (٣٥٪)، تضمنّت دعوات علنية للقتل والتهجير و«الإبادة الجماعية». المفارقة الصارخة هنا أنّ ما يُقمع على الجانب الفلسطيني يُترك حرًا على الجانب الإسرائيلي، بل يُسمح لخطاب الكراهية بالانتشار حتى حين يصدر عن مسؤولين رسميين أو جنود أو مؤثرين ذوي تأثير جماهيري واسع. بل أكثر من ذلك، جرى رصد ٥١ رواية معادية للفلسطينيين تم توظيفها بصورة منهجية لتبرير العدوان على غزة والضفة الغربية، بل وحتى للهجوم على منظمات الإغاثة الدولية التي تقدّم مساعدات إنسانية. تكشف هذه المعطيات أن الفضاء الرقمي لا يعمل هنا كمنصة «محايدة»، بل كأداة مضاعِفة للقوة الاستعمارية، حيث تتحول الخوارزميات إلى وسائط لإعادة إنتاج علاقات القوة العالمية. يكشف استطلاع الرأي الذي تضمنه التقرير عن تجربة الفلسطينيين اليومية مع هذا القمع الخوارزمي: ٦٨,٤٪ واجهوا قيودًا على فيسبوك، ٦٥,٨٪ على إنستغرام، و٣٦,٢٪ على تيك توك. وعند تفصيل المضامين التي جرى استهدافها، يتضح بجلاء أن المنصات مارست «تأطيرًا انتقائيًا» للخطاب الفلسطيني: حذف المنشورات المتعلقة بالشهداء (٨٦,٨٪)، العدوان الإسرائيلي (٦٠,٥٪)، التضامن مع فلسطين (٥٣,٣٪)، فصائل المقاومة (٥١,٣٪)، الأسرى (٤٥,٤٪)، وحملات المقاطعة (٣٢,٩٪). ليس هذا التوزيع عشوائيًا، بل يُظهر أن ما يُراد منعه هو سردية متكاملة تعطي العالم صورة واضحة عن طبيعة الصراع: الضحية، الجريمة، الفاعل، وأشكال المقاومة والرد.

هنا يمكن توظيف مقاربات نظرية من حقل «الهيمنة الثقافية» عند أنطونيو غرامشي، لفهم كيف تُمارس السيطرة ليس فقط عبر أدوات العنف المادي، بل أيضًا عبر «العنف الرمزي» كما عند بيير بورديو. تؤدي المنصات الرقمية، حين تنخرط في هذا التحيّز المنهج، وظيفة قمعية تتجاوز الرقابة التقنية إلى إعادة تشكيل الوعي العام وفق ما يتناسب مع مصالح القوى المهيمنة. ما يحدث هو عملية «إدارة المعتقد» الرقمية، حيث تُقصى السردية الفلسطينية من المجال العمومي العالمي وتُحاصر إمكانياتها في تشكيل خطاب بديل.

إن ازدواجية المعايير التي يكشفها التقرير تتخذ خطورة مضاعفة في لحظة تاريخية وصفتها محكمة العدل الدولية بأنها «إبادة محتملة». ففي الوقت الذي يُكمَّم فيه الصوت الفلسطيني رقميًا، يُترك خطاب التحريض الإسرائيلي ليتكاثر بلا ضوابط، ما يجعل المنصات الرقمية شريكًا في تكريس العنف البنيوي. يمكن القول إن هذه المنصات تتحول إلى «مؤسسات هيمنة» بالمعنى الغرامشي، تدمج رأس المال التكنولوجي مع الأجندات السياسية للغرب وإسرائيل، لتعيد إنتاج عالم رقمي منقوص العدالة.

الخلاصة

في عصر تُشكَّل فيه الحقائق عبر الخوارزميات أكثر مما تُبنى بالمنطق، أصبح التحكم في تدفق المعلومات إحدى أعقد أدوات الصراع المعاصر. لم يعد السؤال: ماذا نعرف؟ بل: من يقرر ما نعرفه؟ ومع تصاعد قدرات الذكاء الاصطناعي والبيانات الضخمة، دخلت المعركة الإعلامية الصهيونية طورًا جديدًا غير مسبوق من الخطورة؛ إذ لم يعد الأمر يقتصر على تهميش الرواية الفلسطينية، بل امتد إلى إعادة صياغة التاريخ نفسه، وإنتاج واقع رقمي مصمَّم مسبقًا بما يخدم المصالح الإسرائيلية.

ينذر المستقبل القريب بتحديات أعقد. فإسرائيل تطوّر أنظمة قادرة على تحليل أنماط الاستهلاك الإعلامي بدقة متناهية، ومن ثم ضخ محتوى مُصمَّم لكل فرد وفق ميوله وسياقه الثقافي والسياسي. لم يعد الهدف مجرد حجب الحقيقة، بل صناعة حقيقة بديلة متكاملة: مقاطع فيديو مفبركة، صور معدّلة، وأخبار زائفة تجعل من التمييز بين الواقع والتزييف مهمة شبه مستحيلة. في مثل هذه البيئة، لا تحتاج إسرائيل إلى حذف الرواية الفلسطينية، إذ تكفي برمجة الإدراك بحيث يصبح عاجزًا عن تصديقها من الأساس.

ومع ذلك، لم تكن السيطرة مطلقة. فقد نجحت المقاومة الرقمية، مدعومةً بحركات مثل BDS، في تحويل الفضاء الرقمي من أداة للهيمنة الإسرائيلية إلى ساحة مواجهة مضادة. دفعت هذه الحملات شركات كبرى مثل غوغل وأمازون إلى مواجهة احتجاجات داخلية ضد عقودها مع إسرائيل، كما أجبرت وسائل إعلام غربية كبرى مثل BBC و The Guardian على مراجعة خطابها خشية فقدان المصداقية. وفي عام ٢٠٢٥، أعلنت أكثر من ثلاثين نقابة طلابية وجامعية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إنهاء تعاونها مع شركات تقنية متورطة في دعم الاحتلال، بعد حملات رقمية مشتركة قادها نشطاء فلسطينيون وحلفاؤهم. يعكس هذا التحول انتقال المقاومة الرقمية من الضغط الرمزي إلى قرارات مؤسسية ملموسة، بفضل إبداع النشطاء الفلسطينيين في التوثيق والنشر من جهة، وانكشاف الخطاب الإقصائي والعنصري للحكومة الإسرائيلية من جهة أخرى، ما جعل الدفاع عنها في الساحة العالمية أصعب من أي وقت مضى.

لم يعد الصراع يُحسم في ساحات القتال وحدها، بل في العقول، والشاشات، والخوارزميات. فإسرائيل اليوم لا تكتفي بترويج رواياتها، بل تسعى إلى إعادة تشكيل الإدراك ذاته والتحكم في المعتقدات. ومع ذلك، أثبتت التجربة أن الوعي ليس سلعة يمكن هندستها بالكامل؛ فالتضامن الرقمي العابر للحدود، والتقارير الحقوقية الموثقة، وحملات النشطاء القادرة على قلب «ترند» عالمي في ساعات، كلها شواهد على أن الحقيقة، وإن حوصرت، قادرة على إيجاد طريقها.

يبقى السؤال: هل يُسرق المستقبل كما سُرق الماضي والحاضر؟ نقف اليوم على أعتاب تحوّل جذري يتسرّب إلى حياتنا عبر الخوارزميات التي تحدّد ما نقرأ ونفكر فيه. لم يعد شكل المستقبل يسهل معرفته أو حتى تخيله، إذ باتت الحقيقة نفسها مادة خام يعاد تشكيلها في مختبرات الذكاء الاصطناعي. الخطر الحقيقي لا يكمن فقط في طمس الرواية الفلسطينية، بل في إعادة صياغة الوعي الجمعي للبشرية، بحيث تصبح القدرة على التمييز بين الحقيقة والزيف رفاهية مفقودة.

صحيح أن السردية الإسرائيلية انكشفت في بعض الجبهات، وهُزمت أمام صور البيوت المدمّرة ووجوه الأطفال على الشاشات العالمية. لكن الفشل الجزئي لا يلغي أن المعركة على الوعي لا تزال مفتوحة. فقد ينجح التضامن الرقمي والتحالفات العابرة للقارات في فضح التزييف وكسر الهيمنة جزئيًا، غير أن السؤال الأعمق هو: هل يكفي هذا لمواجهة ماكينة بروباغندا تتغذى على الذكاء الاصطناعي التنبؤي، وقادرة على صياغة روايات فردية لكل مستخدم على مقاسه؟

المؤكد أننا لا نشهد نهاية مرحلة من الهيمنة الإعلامية، بل بداية مرحلة جديدة يُعاد فيها تصميم الإدراك البشري ذاته. ومن يملك الشجاعة لخوض هذه المواجهة لن يدافع فقط عن فلسطين، بل عن حق الإنسانية جمعاء في رؤية الحقيقة كما هي، لا كما تُصاغ لها.

الهوامش

١ في الفلسفة وعلم الاجتماع، تعني الأكسَمة (Axiomatization) تحويل فكرة ما إلى مبدأ بديهي يُعامل كحقيقة لا جدال فيها، بغضّ النظر عن أساسها التجريبي أو التاريخي. بهذا المعنى، تقوم إسرائيل بعملية «أكسمة» لذاتها كـ«ديمقراطية وحيدة» أو «ضحية»، فتغسل جرائمها رمزيًا في الوعي الغربي وتُضفي عليها شرعية زائفة.

٢ انظري الإرشادات على الرابط التالي: .https://services.google.com/fh/files/misc/hsw-sqrg.pdf

٣ انظري التقرير على الرابط التالي: .https://7amleh.org/post/7amleh-issues-report-documenting-the-attacks-on-palestinian-digital-rights

٤ انظري التقرير على الرابط التالي: .https://7amleh.org/annual٢٢/eng/

المراجع

Al Houri, Walid. 2025. "Digital Erasure: How Social Media Platforms Are Silencing Palestinians in 2024." Global Voices. https://globalvoices.org/2025/05/12/digital-erasure-how-social-media-platforms-are-silencing-palestinians-in-2024/.

Berkowitz, Michael. 1996. Zionist Culture and West European Jewry before the First World War. 1. publ. by The Univ. of North Carolina Press. The Univ. of North Carolina Press.

Bernays, Edward L., Patrick Schnur, Doris Fleischman Bernays, Klaus Kocks, and Mark Crispin Miller. 2021. Propaganda: die Kunst der Public Relations. 13. Aufl. Orange-press.

BHRRC. 2023. "X Allegedly Suspends Hundreds of Palestinian Accounts amid Israel-Gaza War." Business & Human Rights Resource Centre. https://www.business-humanrights.org/en/latest-news/x-allegedly-suspends-hundreds-of-palestinian-accounts-amid-israel-gaza-war/.

Deborah, Brown, and Younes. 2023. "Meta's Broken Promises: Systemic Censorship of Palestine Content on Instagram and Facebook." Human Rights Watch.

Herman, Edward S., and Noam Chomsky. 2002. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. Pantheon Books.

Íris, Damião, José M. Reis, Paulo Almeida, Nuno Santos, and Joana Gonçalves-Sá. ٢٠٢٥. Digital Gatekeeping: An Audit of Search Engine Results Shows Tailoring of Queries on the Israel-Palestine Conflict. arXiv. https://arxiv.org/html/2502.04266v1.

Khalidi, Rashid. 2010. Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness. Columbia University Press.

Le Bon, Gustave. 2021. Psychologie der Massen. 2. Auflage. Translated by Holger Schulz. Tredition.

Noble, Safiya Umoja. 2018. Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism. New York University Press.

Raynharts, Yehudah. 1975. Fatherland or Promised Land: The Dilemma of the German Jew, 1893 - 1914. Univ. of Michigan Pr.

Roth-Rowland, Natasha. 2022. "Mission Failed: How Israel's Anti-BDS App Went Belly-Up." +972 Magazine (Jerusalem). https://www.972mag.com/actil-israel-bds-app-failure/.

Wolff, Robert Paul, Barrington Moore, and Herbert Marcuse. 1970. A Critique of Pure Tolerance. 5th printing. Beacon Paperback 328. Beacon Press.

Zuboff, Shoshana. 2020. The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power. First trade paperback edition. PublicAffairs.

وليد حباس*

الذكاء الاصطناعي القاتل في غزة: فجوات القانون الدولي وشرعنة العنف الإبادي

ملخص

يتناول هذا المقال الدور الحاسم الذي أدّته أنظمة الذكاء الاصطناعي في الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة، حيث تحوّلت إلى منظومات استهداف مؤتمتة تنتج قرارات قتل واسعة النطاق دون أي رقابة بشرية حقيقية. ويجادل المقال بأن هذه الأنظمة لا تُستخدم فقط لتعزيز «الكفاءة» والسرعة العسكرية، بل تُجسّد بنية معرفية استعمارية تعيد تصنيف السكان على أنهم مؤشرات رقمية قابلة للمحو وفق منطق حسابي مجرد. يستند التحليل إلى مجموعة مفاهيم نقدية تُستخدم لفهم آثار الذكاء الاصطناعي في السياقات السياسية والعسكرية والحقوقية، مثل «التحيّز الآلي» (Automation Bias)، و«تحقيق السيناريو» (Scenario Fulfillment)، و«التجسيد المضلل» (Misplaced Concreteness)، و«الغموض المعرفي» (Epistemic Opacity)، والتي يكشف توظيفها عن الطابع الإبادي المضمّن في حرب الخوارزميات. وأخيرًا، تسلط الدراسة الضوء على عجز القانون الدولي الإنساني في مواجهة هذه الممارسات، في ظل غياب بروتوكولات تنظيمية واضحة، مما يتيح لإسرائيل تسويق العنف المؤتمت كأفعال مشروعة.

كلمات مفتاحية:

الذكاء الاصطناعي الحربي ؛ الإبادة الخوارزمية؛ الاستعمار البياني؛ الحرب على غزة؛ القانون الدولي

---

* باحث في المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، وحاصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع. يمكن تصفح سيرته المهنية على الرابط https://independent.academia.edu/WalidHabbas/CurriculumVitae، أو مراسلته عبر البريد الالكتروني walidhabbas1980@gmail.com .